نعي المرحوم الأستاذ خالد الناصري (*)

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

حضرات السيدات المحترمات،

حضرات السادة المحترمين،

اسمحوا لي أن أوجه بحضرتكم رسالة إلى روح فقيدنا الأستاذ المفضال، المرحوم بكرم الله، خالد الناصري؛

أخي العزيز،

ما أزال أذكر الساعة التي سمعت فيها نعيك، مساء يوم الأربعاء الرابع عشر من رمضان الكريم، الخامس أبريل 2023، أحسست ساعتها بحزن عميق، وكم كان شعوري بخيبة الأمل خصوصا أنني قبل ثلاثة أيام عن فراقك لنا، حاولت الاتصال بك هاتفيا ظنا مني أنك بعمان، لكنني فوجئت بصوت ابنك هشام يطلعني على وجودك في مصحة بالرباط قصد العلاج بعد عودتك إلى أرض الوطن، وكأنك مصمم أن تلبي نداء ربك بين ذويك وأهلك؛ ذلك ما أراده الله تعالى، وكم كانت قوة صدمتي لأنني كنت أمني النفس بلقياك بعد مغادرتك المصحة والعودة إلى منزلك، إلا أن الأمور سارت على منوال معاكس ومحزن، فاستلمت وأصدقائك رفاقك إلى واقع لا مفر منه، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى.

كنت يا صديقي العزيز من الرجالات الذين أبلوا البلاء الحسن في كل المجالات المرتبطة بالوطنية وحب الانتماء إلى بلادهم؛ فمن خلال قراءة أبحاثك ومقالاتك في التطور الدستوري ببلدنا نستشف طموحك في أن ينعم المغرب بنعمة الديمقراطية واحترام حقوق الأفراد.

لن ننسى مقالاتك القيمة التي من خلالها عبرت عن مواقفك في شتى المواضيع :

(*) نص الكلمة التي ألقاها الأستاذ محمد أمين بنعبد الله بمناسبة الذكرى الأربعينية التأبينية التي نظمت من قبل حزب التقدم والاشتراكية وأسرة الفقيد، يوم الإثنين 15 ماي 2023، بالمكتبة الوطنية، الرباط.

- عرفنا فيك صفات الرجل السياسي المحنك؛
- عرفنا فيك الأستاذ الجامعي الباحث؛
- عرفنا فيك المدافع الملحاح عن حقوق الإنسان؛
- عرفنا فيك رجل الإعلام المتنور والناطق الرسمي للحكومة؛
- عرفنا فيك الباحث والمنظر الدستوري.

وفي كل هذه المجالات لمسنا عمق التحليل ورجاحة الرأي والموضوعية ووضوح المقصد.

كنت رجلا سياسيا وازنا وأستاذا مرموقا،

بالنسبة لك كأستاذ وسياسي كانت الكلمات والمصطلحات أدوات عمل ذات أهمية، تستعملها ببراعة ودقة تثير الغبطة لدينا، وسيحافظ طلابك الذين تتلمذوا على يدك بشروحاتك المستفيضة وارائك الثاقبة، الطلاب الذين، من خلال طريقتك في التدريس، ما زالوا يحتفظون في ذاكراتهم بمضامين دروسك وما تكتنفه من رسائل دون الحاجة إلى مراجعتها، أليست هذه من شناشن المعلم المثالي الجدير بكل الاحترام، احترام لا يضاهيه إلا الإعجاب من لدن أصدقائه وزملائه؟

ولا أدل على ذلك أكثر مما تفضل به المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني عند تعيينه لك سنة 1996 مديرا للمعهد العالي للإدارة وذلك قبل إحداثه، من تنويه وإطراء بشخصك حيث قال، رحمه الله، إنه أعجب بقراءة مقالاتك المنشورة في جريدة البيان والاستماع الى فصاحتك في برنامج تم بثه بالتلفزة المغربية؛ إنها، لعمري، شهادة بمثابة وسام رفيع المستوى من فصيح متضلع في اللغة إلى فصيح يحق القول في حقه «إن القوس أعطيت باريها».

إن الحديث عنك، بعد أن غادرتنا لدار البقاء ليشكل بالنسبة لكل من عرفك امتحانا غير يسير، حيث ستكون الكلمة أقل بكثير مما يراد به القول، ليس خشية التقصير أو الفشل في واجب الإنصاف الذي تستحقه، بل خوفا من أن كلماتنا لن ترقى الى مستوى ما نريد التعبير عنه كما كان بإمكانك أن تفعل؛ ففي ظروف وحالات معينة، كثيرا ما يود المتحدث التعبير بحواسه عوض الكلمات لأن الكلمات ليست كلها كالكلمات.

كان مسارك العلمي غزير الإنتاج!

ويتضح من خلال الدراسات التي كتبتها في مراحل مختلفة من تاريخ المغرب الدستوري أنها تخلد صورة معبرة للغاية عن مؤسساتنا وتطورها، لم تكن تقتصر على الوصف فحسب، بل كانت غنية بالأفكار الثاقبة، ومليئة بالتحليلات الناجعة، وسخية بالاقتراحات النيرة، وأحيانا تتخللها، عن صواب، احتجاجات أو بالأحرى تحفظات؛ وهو بالضبط ما ينبغي أن يتميز به الأستاذ الباحث الحقيقي.

وحيث إن الحفل التأبيني الذي يجمعنا في هذه الأمسية المباركة شهادة صداقة صادقة لروحك الطاهرة أكثر من أي شيء آخر، فإني أفضل الامتناع عن الانزلاق إلى خطيئة الخطاب المتسم بالإطراء اللامشروط، مقتنعا أنك كنت دوما تميز بين الحقيقي والمزيف، كما أتحاشى في نفس الآن الميل نحو المناقشة أو النقد، مهما كان علميا وبناء، لكونه يستبعد كل حق في الرد ويمس بمبدأ حقوق الدفاع التي كنت دائم الانتصار لها.

فأعمالك يميزها خط توجيهي، خط بمثابة خلفية تعطي قيمة وانسجاما في منتهى الوضوح، وأعتقد جازما أن كل كتاباتك على مدى أكثر من أربعين سنة كانت كلها تتمحور حول تلك السيمفونية السياسية الرائعة والأبدية، مفهوم الديمقراطية بكل آثاره.

من محصلة كتاباتك أن الديمقراطية، كطريق أوحد لرفاه الفرد والحفاظ على كرامته، لا تقتصر على صناديق الاقتراع بقدر ما هي مدرسة لا ينتهي فيها التعلم أبدا، يكمن هاجسها الأساسي واهتمامها الدائم في سعادة المواطن وصيانة حقوقه، ولا يختلف اثنان في أن كل مداخلاتك وأبحاثك تستجيب لهذا الشاغل النبيل بالتحديد، مما يطفو على السطح في أبحاثك من تقديم أطروحة الدكتوراه بجامعة باريس سنة 1983 في موضوع (القانون السياسي في الترتيب القانوني، محاولة تأويل نظام الحكم بالمغرب) إلى ما كتبته بعد صدور دستور 2011.

وبذلك كنت مفكرا دستوريا فعالا وصاحب رؤية بعيدة الغور،

في هذا السياق، سأكتفي بما اعتبره أساسيا:

في مقالك المنشور في عام 1992 بعنوان «جانب تعزيز سيادة القانون في الدستور الجديد»، رحبت بتبني مرجعية أن الدولة، في جميع أنشطتها وسلوكها، تستند إلى سيادة القانون ومفهوم دولة الحق والقانون، وقد لاحظت ذلك بارتياح من خلال المستجدات التي أدخلت في النص الدستوري حيث جاء فيه أن المملكة المغربية «تؤكد تشبثها بحقوق الإنسان كما هي معترف عليها عالميا»؛ وعلى الفور تحدد بالقول لتبديد كل إبهام أو لبس، «بالنسبة لي، هذه ليست مصطلحات فارغة المحتوى، لأن المشرع الدستوري يدرك تمام الإدراك معنى الكلمات» وتضيف لمزيد من التوضيح : «يحاول البعض تقليل نطاق حقوق الإنسان من خلال الادعاء بأن هناك خصوصية في طريقة التعامل مع الموضوع، كما لو أن الإنسان لم يكن هو نفسه في كل مكان!»

أليس هذا التأكيد توضيحا لما قلته منذ قليل حول دقتك بشأن استخدام الكلمات؟

وفي نفس السياق، فقد تسلحت بالواقعية والموضوعية في جميع ملاحظاتك حول مراجعة الدستور؛ في مقالك «الإصلاح الدستوري وديناميكية الاستقرار» الذي نشرته عام 2008 منشورات الجمعية المغربية للقانون الدستوري، تصرح بأن الانتقال الديمقراطي يرتبط بدينامية مستمرة لا تقرر بالمراسيم.

من خلال تساؤلك عن معنى الإصلاح الدستوري، أبرزت حقائق لا مندوحة عنها بقدر ما هي لصيقة بالواقع المعيش؛ تنطلق من فكرة أن هناك العديد من القراءات والمفاهيم تستقر على تأكيدات صحيحة في حد ذاتها، ولكن غير منسجمة مع الواقع؛ واقترحت أن المنهجية الصحيحة هي التفكير في النظام كما يعمل وليس على إطلاقه؛ كان ذلك في عام 2007، اقترحت التركيز على المواضيع الرئيسية التي تتطلب الإصلاح.

في الواقع، لقد كنت دائما ميالا إلى الإصلاح مع قناعة واضحة بأنه ثابت ولا ينتهي أبدا، وهكذا، بعد الخطاب التاريخي لصاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله في 9 مارس 2011، كنت من الأوائل الذين أشادوا به وتحدثت في تحليلك عن ديمقراطية متجددة تجمع بين ثلاث طاقات: المؤسسة الملكية التي بادرت للعملية الدستورية، والشباب المطالب بأسس الحداثة السياسية والمؤسساتية، والأحزاب السياسية للحركة الديمقراطية والإصلاحية.

وكنت فنانا يتذوق الروائع الفنية الرفيعة

لم يكن قط الحديث معك أخي خالد محدودا في فلك القانون فحسب، بل كلما كنا نقصد مدينة ما بالمغرب أو خارجه للمشاركة في ندوة من الندوات كنت أكتشف سمة إنسانية كانت تبدو لكل أصدقائك فاعلة في حياتك الشخصية والمهْنية، ولا سيما عند الاستماع إلى روائع فنية في منتهى الجمال والرقة من خلال كلمات شاعرية رقيقة ترسم «ذكريات» وأشواق تسبح بنا في وقفة تأمل أمام «القمر الأحمر» وجمال مغربنا وقد تحملنا في «جندول» عبر «نهر خالد» رقراق ليحط بنا زاد الخيال، بعد لحظة بجوار «الكرنك»، في «ڤيينا» وليالي أنسها لنبعث مع النسيم للأحباب سلاما، فكنا نحس على الدوام أن القانون يحول برفقتك إلى متعة يخللها ماء الفن والنكتة، الماء الحامل إحساسا شفافا ينم كوثره عن خصوصية شخصيتك الفذة.

أخي العزيز، إن ذكراك ستظل خالدة في أذهاننا لما قدمته من خدمات جليلة لبلدك وطلابك وزملائك وأصدقائك، وكأن لقبك «الناصري» بمثابة إرهاص أنك ستنتصر دائما للحق والعدل والعيش الكريم لكل مواطنيك.

رحمك الله بفضله وكرمه وأسكنك فسيح جناته وأبدل حبنا وتقديرنا لك بالسلوان والصبر الجميل.

حضرات السيدات والسادة، أشكركم على كرم إصغائكم.

ذ. محمد أمين بنعبد الله
أستاذ القانون العام